

الروضة الرابعة

الدعاء

لغيرك ما مددت يدا

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60]

الروضة الرابعة

وَيَقُولُ حَبِيبُكَ ﷺ :

إِنَّ الدَّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ : " وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ "

رواه أصحاب السنن والحاكم وقال الترمذي : حسن صحيح

وَقَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ :

هَذَا قَدْ مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْكَ فَرُدَّهَا

بِالْفَضْلِ لَا بِشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

نمهيده

من روضة الزهد انطلقنا بعد أن عشنا في رحابها مدة وحللنا بساحتها زمناً ، فعرفنا قيمة الدنيا وخبرنا زورها وزخرفها ، بعد أن طالعنا أقوال الصالحين ، وأحوال الربانيين ، ثم بدا لنا أن نشد الرحال نحو روضة أخرى ، فجددنا النية وعقدنا العزم ، ومضينا في راحة ورضا ، نبحت عن أقرب روضة من الزهد لنحط بها رحالنا ، فإذا شجرة ظلها ظليل ، وهواؤها عليل ومرأها جميل ، فيمنا وجوهنا شطرها وأسرعنا نحوها ، فإذا ورقة منها قد تدلت ، وعليها بخط ظاهر ، وحروف من نور باهر ، كلام في غاية الحسن يسر الناظر ويسعد خاطر ، للعبد الصالح : مطرف بن عبد الله يقول : تذكرت ما جماع الخير ، فإذا الخير كثير ، الصوم والصلاة ، وإذا هو في يد الله عز وجل ، وإذا أنت لم تقدر على ما في يد الله عز وجل إلا أن تسأله فيعطيك ، فإذا جماع الخير : الدعاء⁽¹⁾ ، فلما قرأنا أدركنا أن الخطى تقودنا نحو روضة الدعاء ، وإذا الباب قريب ، وعليه بأروع حرف وأجمل خط مكتوب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 186] فأسرعنا يحدونا الشوق إلى إدراك هذه الروضة ، لننعم بما حباها المولى من خيرات ، ونتفنى ظلالها لحظات ، ونمتع الروح ببهائها ، ونطعم القلوب من خيراتها ، ونسعد النفوس بحورها وولدانها ، ونزكي أبصارنا برؤية شواطئها وأنهارها ، قال صاحبي : لقد شوقتنا وهيجت نفوسنا ، فقلت : نحن على بعد خطوات ، وها هو الباب يفتح ، فترجل أيها الحبيب ثم انطلق.

أخي الحبيب : إن رفع اليد ، وبسط الكف ، وكسرة القلب ، وخضوع الوجه ، وهيئة الطالب الدليل والسائل الفقير ، كل ذلك فن لا يحسنه إلا الفقراء ولا يتقنه إلا السعداء ، وأولو النهى وأرباب التقى ، وأصحاب القلوب المنكسرة لمولاه ، والجباه المعفرة لسيدها وخالقها ، نعم أخي إن الفقر إلى الله فن لا يحسنه سوى الفقراء الذين يمرغون وجوههم في التراب ، ويدمنون



قرع الأبواب ، طمعا في الوصول إلى حضرة الملك الوهاب ، هؤلاء هم الناس أخي ، وعيب أن يقال لغيرهم ناس ، فتراهم يتقلبون على بساط الفقر والذل والخضوع والانكسار ، لا يعرفون الغنى إلا مع مولاهم ، ولا العز إلا في الإقبال على سيدهم الذي أطعمهم من جوع كما أمنهم من خوف ، فهم الفقراء الأغنياء ، فقرهم إلى الله ، وغناهم عمن سواه ، الله عز وجل مولاهم ، ورضاه مرادهم ، وحماء ملاذهم ، وحب زادهم ، واسمع أخى الحبيب إلى شيخ الإسلام ابن القيم وهو يصف أحدهم فيقول : (فالفقر خالص بكليته لله سبحانه ، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظ ونصيب ، بل عمله بقيام شاهد الحق وفناء شاهد نفسه ، قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه ، فهو يريد الله بمراد الله ، فمفعوله على الله ، وهمته لا تقف دون شيء سواه ، قد فنى بحبه عن حب ما سواه ، وبأمره عن هواه ، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه ، فهو في واد والناس في واد ، خاضع متواضع سليم القلب ، سلس القياد للحق ، سريع القلب إلى ذكر الله ، برئ من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله ، زاهد في كل ما سوى الله ، راغب في كل ما يقرب إلى الله ، قريب من الناس أبعد شيء منهم ، يأنس بما يستوحشون منه ، ويتسوحش مما يأسون به ، منفرد في طريق طلبه ، لا تقيدته الرسوم ، ولا تملكه الفوائد ، ولا يفرح بوجود ، ولا يأسف على مفقود ، من جالسه قرت به عينه ، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه ، وقد حمل كله ومؤنته عن الناس ، واحتمل أذاهم وكف أذاهم عنهم ، وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز ، لا يدخل فيما لا يعنيه ، ولا ييخل بما لا ينقصه وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع ، والحلم والوقار والاحتئال ، لا يتوقع لما يبذله للناس عوضا منهم ولا مدحة ، ولا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ، ولا يرى له على أحد حقا ، ولا يرى على أحد فضلا مقبل على شأنه ، مكرم لإخوانه بخيل بزمانه ، حافظ للسانه ، مسافر في ليله ونهاره ، ويقظته ومنامه ، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه ، قد رفع له علم الحب فشمّر إليه ، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه ، أجاب منادى المحبة إذا دعاه حي على الفلاح ، ووصل السرى في بيداء الطلب فحمد عند الوصول سراه ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح ⁽¹⁾ .

(1) طريق المهجرتين . ص 48 ، الإمام ابن القيم . ط المطبعة السلفية .

الآن عذرا أيها الحبيب : فقد أطلت في هذا الفصل ولا يد لي ولا حيلة ، فقد سحرني الإمام بسحره الحلال ، وسبى قلبي بهذا العذب الزلال ، فأعد قراءة هذا الوصف بقلبك قبل لسانك ، وأجل فيه البصيرة قبل البصر ، لتستشعر حقيقة الفقر التي أريد ، وتعلم أنك لا زالت بخير مادام الفقر إلى مولاك هو وصفك ، ومادامت يدك ممدودة إلى سيدك تسأل وتطلب وتدعو .

نحن إذن أيها الحبيب في روضة لا غنى لمسلم عنها ، أينما حل ،
وحيثما نزل ، وفي أي وقت كان ، فالفقر مركبك ، والشوق
حاديك ، والدعاء سلاحك ، ولن تواجه تحديات الحياة على
كثرتها إلا بسيف لا ترتد ، وسهام لا تخطئ وهتاف لا يرد ،
ودعوات هي والإجابة قرينان لا يفتقدان ولا يفترقان ،



فانظر أخي ، هل لك عن الدعاء غناء ؟ لا والله ، **فالاخذ بالدعاء دنع لازع ، لانك :**
- إما أن تكون راعيا وراك الله تعالى أمر رعية ، فأنت أفقر الخلق إلى الدعاء ، ليشد الله ملكك ، ويثبت حكمك ، ويرزقك التوفيق ، ويهديك إلى العدل ، ويحبب إليك الرعية ، ويحببك إلى الرعية، ولذا فالدعاء أنفع شيء لك ، وأصلح دواء لقلبك وبدنك.

- وإما أن تكون داعيا إلى ربك عز وجل ، وصاحب رسالة ، وحامل راية ، وطالب إصلاح ، وهادي أمة نحو ثورة مباركة خضراء تحمل الخير وتجلب البر وتحارب الشر ، ومن ثم فأنت أيها الحبيب أحوج الخلق إلى الدعاء وطلب العون ، وسؤال النصرة والتثبيت ، حتى يحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الذين ظلموا ، ويأمن الخلق في ظلال الإيمان والتقى وترتاح قلوبهم وخواطرهم بأنوار الحق وهدايات الوحي.

- وإما أن تكون مجاهدا في سبيل الله ، ترفع لواء الحق ، وتعلو راية الأمة ، وتحمل روحك على كفك فداء لدينك ، ونصرة لنبيك ، ودفاعا عن أمتك ، تطلب الأجر ، وتحسب الوقت ، وتجعل من دمك الزكي وقودا يشعل الأرض تحت أقدام الغاصبين ، ويضيء طريق الحق أمام السائرين ، فإذا أنت إلى ربك أحوج ، وإلى

مولاك أفقر ، فأسأل ربك النصر ، واستنزل بالدعاء السكينة ، واطلب من ربك أن يفرغ عليك صبرا ، وأن يجمع شملك ، ويفرق شمل عدوك ، فهو منك قريب وأنت تشعر بذلك دائما وتحسه لا محالة في كل وقت.

- وإما أن تكون مريضا مبتلى ، جرت عليك سنة البلاء كما جرت من قبل على الأنبياء ، فتصبح وتسمى صريع دائك ، طريح فراشك ، ترجو السلامة وتطلب العافية وتنتظر الفرج ، فأنت إذن إلى الدعاء أشد فاقة ، وأعظم حاجة ، وأكثر فقرا ، فمد يدك ، وابسط كفك ، وفرغ قبلك ، وتوجه إلى ربك فاسأله أن يفرج كربك ، وأن يكشف ضررك ، وأن يرفع بلواك ، كما رفع عن أيوب بلواه ، وعندها لن تعود يدك خاوية ، لأنك تدعو كريما ، وتسأل مجيبا وتناجي قريبا .

- وإما أن تكون ذا عيال ، كثر عددهم ، وزادت مؤنتهم ، وتشعبت بك السبل في رعايتهم ، وعندها لا أنعت لك أيها الحبيب أفضل ولا أغلى من الدعاء فهو لك خير معين على حسن الرعاية ، ومشاق التربية ، وحسن التوجيه ، وهموم العيش ووسوسة الرزق ، فأسأل ربك أن يقوى ظهرك ، وأن يثبت فؤادك ، وأن يهب لك من الزوج والذرية ما تقر به عينك ، وتطيب به نفسك ، وأن يكونوا جميعا يوم العرض في ميزان الحسنات بحسن التوجيه ، وسلامة التربية وجميل الهداية والتعليم.

- وإما أن تكون أيها الحبيب صاحب مال وتجارة ، تسعى في طلب الحلال ، لتكفى نفسك وتطعم أهلك ، وتتصدق بعد ذلك من رزق الله على من هم حولك ، ويحتاجون إلى فضلك ، فأنت إذن أفقر الخلق إلى ربك وأحوجهم إلى مولاك ، في زمن اختلطت فيه الأمور ، واشتبك الحق بالباطل ، وصار الفارق بين الحلال والحرام شعرة وعرضت الفتن نفسها على الناس عرضا ، فاسأل ربك أن يبارك مالك ، وأن يزكي تجارتك ، وأن يطيب مطعمك وأن يرزقك من الحلال الخالص ما يصح به بدنك وتزكو به نفسك ، وتقبل به طاعتك ، ويرفع به عملك.

وبالجملة أيها الحبيب أنت في أي موقع كنت ، وعلى أية حال تقلبت ، بالليل والنهار ، في الخلوة والجلوة ، في غناك وفقرك ، في قوتك وضعفك ، في صحتك ومرضك ، في

مسييس الحاجة إلى الدعاء ، فحذار أن تنسى ، وإياك أن تنقطع عن باب مولاك ، وارفح أكف الضراعة في كل وقت ، ففي ذلك سعادة الدنيا وفلاح الآخرة ، وربك الغنى ذو الرحمة ، يجب أن يسأل ويغضب على من لا يسأله وهو القائل سبحانه ﴿وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:32]

أخي الحبيب ، ماذا لو سألت أخاك حاجة ؟ وماذا لو طلبت من جارك شيئاً ؟ وماذا لو مددت يدك لقريب في ضر نزل بك أو ضائقة حلت بساحتك ؟ هل تراهم يفرحون بسؤالك أم يغضبون ؟ سأترك الجواب فهو ظاهر وعنوانه واضح ، وانتقل بك سريعاً إلى حديث عجيب من أحاديث



الحبيب ﷺ أورده الإمام البخاري في الأدب المفرد والترمذي وقال : حسن ، أن النبي ﷺ قال : من لم يسأل الله يغضب عليه ، يا الله ! سبحانه ربي ما أعظمك ، وما أكرمك ، وما أوسع فضلك وأسبغ نعمك ، تأمل أخي هذا الحديث ، وقف أمامه ، ثم قارن بين البشر ورب البشر ، بين مخلوق ضعيف فقير يغضب إذا سأله ، والخالق الغني الكريم الذي يغضب عليك إن تركت سؤاله ، إن المعنى اللطيف الدقيق الذي التقطه هذا العبد الصالح ثم قدمه إليك منظوماً في بيتين من الشعر غاية في الروعة ، فإن استطعت أن تحفظهما فافعل لتظل يدك ممدودة إلى مولاك ، معرضة عن سؤال فقير مثلك ، يطرق الباب كما تطرق ويطلب من مولاه كما تطلب **يقول الشاعر :**

وسل الذي أبوابه لا تحجب
وبنى آدم حين يسأل يغضب

لا تسألن بني آدم حاجة
الله يغضب إن تركت سؤاله

نعم أيها الرجل ، قد والله صدقت ، إن ابن آدم يغضب عند السؤال ، ويعرض بوجهه عندما تمتد إليه يد ، أما الذي برأ آدم وذرية آدم ، ورزق آدم وبني آدم ، فإنه لا يغضب على أحد غضبه على من أعرض عنه وسأل غيره ، وهل يليق بعاقل أن يطرق باباً مغلقاً قد يفتح أو لا يفتح ، ويترك باباً مفتوحاً صاحبه قريب ، وقاصده لا يرد ؟ وهل من الصواب أخي أن تترك بيت غنى غناه ظاهر ، وعطاؤه وافر ، وكرمه منظور وفضله مشهور ، إلى بيت فقير مثلك ظهر فقره واشتهر بين الناس بخله ؟ لا أيها

الحبيب اللبيب ، فالفقير لا يسأل فقيراً ، وإذا مد الفقير يده فإنها يمدّها لغنى ظاهر الغنى حتى لا تعود فارغة ولا تنقلب خائبة ، ولقد كان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - فقيهاً عندما راح يدعو مولاه بهذا الدعاء : يا من يغضب على من لا يسأله ، لا تمنع من قد سألك ⁽¹⁾ ، الله أكبر ، اقرأ أخي هذا الدعاء ، ثم ادع به في خلوتك ودع معناه يمرق إلى قلبك ، فإني أخاف على عقلك أن ينبره وعلى قلبك أن ينفطر ، فأسأل ربك الثبات أمام نفحات الصالحين ، والصبر على معاني الربانيين .

إن مما يحرك النفس للدعاء ، ويدفع المرء أن يمد كفه نحو السماء ، يستنزل النصر إن كان في معركة ، ويطلب العافية إن كان في شدة وبلاء ومرض ، ويسأل ربه التوفيق إن كان على مفترق أو في بداية طريق ، أقول أخي الحبيب ، إن ما يحرك النفس إلى الدعاء ويشوق القلب إليه : حياء الرب سبحانه ، نعم



والله ، تخيل هذا وتصوره جيداً ولا تتعجب ، فحياء الرب يغري ، وكرمه الذي لا حدود له يدفع الصالح والطالح إلى السؤال ، ويهيج البار والفاجر إلى رفع اليد وبسط الكف ، وهذا ورب السماء والأرض ليس كلامي ، وإنما هو نفحة من نفحات شيخ الإسلام ابن القيم نور الله تعالى قبره ، ورفع قدره ، وأعلى في الجنة درجته ، حيث يقول - وفي قوله للنفوس صلاح وللأبدان شفاء - : (وما يغري النفوس بالدعاء : حياء الرب تعالى من عبده ، فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيّفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر ، وجود وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حي كريم ، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً ، ويستحي أن يعذب ذا شبيبة شابت في الإسلام ، وكان يحيى بن معاذ يقول : سبحان الله ! يذنب العبد ويستحي هو) ⁽²⁾ ، يا الله سبحانه ، بالله يا أخي الحبيب : اقرأ هذا الكلام مرة بعد مرة ، وأعد القراءة فإن ربك لا محالة سيفتح لك من المعاني ما يعينك على فهم تلك المقامات وإدراك هذه المنازل ، وقف وأنت تقرأ أمام قوله : إنه حياء كرم وبر ، وجود وجلال ، فهو يجيب قبل أن نسأل : وهل يستحي

(1) صفة الصفوة ج 4 ص 66 . ابن الجوزي .

(2) مدارج السالكين ج 2 . ص 272 .

الرب جل وعلا وما نوع هذا الحياء ؟ ويا له من رباني أنار الله تعالى بصره وهدى بصيرته ، فألهمه الجواب قبل أن تطرح السؤال ، إنه حياء الكريم يستحي أن يرد يدا مدت إليه ، أو أن يخيب رجاء عبد تعلق رجائه به ، ثم قف مرة أخرى عند قول يحيى بن معاذ : سبحان من يذنب عبده ويستحي هو ، والله در يحيى وإخوان يحيى من الربانيين الذين صفت قلوبهم وسمت أرواحهم فألهمهم ربهم الحكمة تجرى على ألسنتهم وتفيض من قلوبهم ، سبحان من يذنب عبده ويستحي هو ، فيارب أنا أحق بالحياء فأنا رب الذنب وصاحبه ، أنا المذنب بالليل المسمى بالنهار ، والمفرط في جنبك على مدار اليوم واللييلة ، أفأذنب أنا وتستحي أنت ؟ سبحانك عز جارك وعظم سلطانتك ، وجلت حكمتك ، أذنس بالذنب عرضي وألطح بالفاحشة ثوبي ، وأسود بالمعصية صحيفتي ، ثم ثم تستحي أنت ؟ يا مولاي وسيدي ، يا ولي نعمتي إن لطفك لا حدود له ، وكرمك لا ينتهي ، وعطاؤك لا ساحل له ، وحياءك لا سقف له ، تستحي مني وأنا أحق بالحياء منك ؟ تمن على بالإجابة على ما كان مني من جهل ؟ وتتحجب إلى بالنعم وأنا المسيء الذي يبارزك بالمعاصي ؟ وتتفضل على بأنواع الهبات وأشكال العطايا وشري إليك صاعد على الدوام لا يتوقف ؟ يا قلة حيائي منك أيها الملك ، أنا المخلوق وأنت الخالق ، مني الذنب ومنك العفو ، مني الإساءة ومنك الصفح ، فأنا بظلمي وجهلي أهل المعصية ، وأنت بكرمك وجودك وحكمتك وحيائك أهل المغفرة ، فلا تعاملني بما أنا أهله ، ولكن بما أنت أهله ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة لا إله إلا أنت .

إن حياء الرب يغرى بالدعاء ، وقربه يثير في المسلم الشوق إلى رفع اليد وبسط الكف ، وأنت عندما تدعو ، فإنما تدعو قريباً ، وعندما تسأل فإنما تسأل مجيباً ، وصف نفسه بأنه قريب وضمن لك مع السؤال الجواب ، وعند النداء العطاء ، فإذا أعرض عنك مخلوق فدعه ، وتوجه إلى الخالق ، وإذا أغلق بشر بابه دونك ، فثم رب البشر ، بابه مفتوح لا يغلق آناء الليل وأطراف النهار ، فلا حارس عليه ولا حاجب ، وهو القائل سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي



قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿البقرة: 186﴾ ، وعند تفسيره لهذه الآية يرسم سيد رحمه الله تعالى لوحة فريدة بقلمه ، ويصورها بريشته ، ويجسد المعاني القرآنية لتصير حية تتحرك في تناسق بديع وتجانس عجيب فانظر ماذا يقول : (أية رقة ؟ وأي انعطاف ؟ وأية شفافية ؟ وأي إيناس ؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك الندوة الحبية ... " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان " إضافة العباد إليه والرد المباشر عليهم منه ولم يقل : فقل لهم : إني قريب ، إنما تولى بذاته العلية الجواب على عبادته بمجرد السؤال " قريب " ولم يقل : أسمع الدعاء ، وإنما يجعل بإجابة الدعاء " أجيب دعوة الداعي إذا دعان " إنها آية عجيبة ، آية تسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة والود المؤنس والرضى المطمئن ، والثقة واليقين ، ويعيش منها المؤمن في جناب رضي وقربى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين ⁽¹⁾ .

ألا تشارك سيدا رحمه الله رأيه في أنها آية عجيبة ؟ إنها والله كذلك ، وصدق سيد ، والآن أخي أعد قراءة هذه الآية ، وعش معها بعقلك ، وافتح لمعانيها قلبك ، وحلق معها في آفاق من الندى والرضى ، وسماوات من الإيثار والإحسان ، فذلك مقامك ، وهنالك أيها الحبيب مكانك ، ولم لا ؟ وأنت تلميذ سيد ، ومن إخوان سيد ، على الدرب تسير وفي ذات الطريق تمضي وتصل الليل بالنهار ، وتستمد من سيرته الثبات ، ومن نفحاته اليقين ، حتى تدرك على الدرب إحدى الحسينين : إما أهازيج النصر ، أو ترانيم الشهادة ، ويومها يفرح المؤمنون ، ويهنأ بالنصر الموحدون ، ويخسأ الشيطان وجند الشيطان وحزب الشيطان.

وتتوالى الآيات ، وتتواصل العطايا والهبات ، تمطر الروح بالنفحات ، وتملأ القلب باليقين والرضا والسلام والسكينة ، وهذا شأن القرآن الكريم أخي في كل وقت ، آياته جديدة وروحه وثابة ، ومعانية بحور بلا شطآن ، وعطاؤه بلا حدود ، وإذا كنا قد وقفنا مع آية سبقت ، فهذه أخت لها لا يسعنا إلا أن نقف أمامها ، نقرب الطرف فيها ، ونبلل الروح بنداها ، ونحي القلب



الذي ران عليه الذنب وأحاطت به خطاياہ بجميل معانيها ، فاسمع وقرأ وتدبر ، فأنت في روضة الدعاء ، أمام بحر زاخر ، وروض أنف ، وسما لا تطال ، فيها من الأعاجيب كثير ، ومن الدواء والشفاء ما يكفى ويشفى ، ويسمن ويغنى ، فاقراً قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60] نعم أخي اقرأ وسأقرأ معك ، فأنا أشعر بها غضة طرية كأنها الآن نزلت ، وكأني لم أقرأها قبل اليوم ، أما عند الحديث عن معانيها وعطاياها فأدع سيدا رحمه الله تعالى يتكلم فهو أفصح منى لسانا ، وأزكى نفسا وأبر قلبا ، وأوسع علما ، وأعمق فهما وأعظم فقها ، وإذا تكلم سيد ، فليسمع الكل ولينصتوا ، فإنه لا محالة آت بخير الكلام وطيب الثمار ، يقول رحمه الله : (والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه ، والتضرع إليه مما يشفى الصدور من الكبر الذي تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدل في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لتوجه إليه ، وندعوه ، ويعلق لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ، وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار)⁽¹⁾.

وأمام تلك اللوحة التي رسمها سيد نتوقف ، نتوقف للتأمل ونتعظ ، ثم نرفع الأيدي سائلين المولى الذي يغضب على من لا يسأله ، **يدفعنا إلى السؤال خوفاً ورجاءاً :** أما الخوف فمن الكبر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60] فالذي لا يرفع يده ويسأل ربه أحد **رجلين :**

الأول : غافل ، فهو كالأنعام بل أضل .

والثاني : متكبر يستكف أن يمد يده لمولاه .

وكلا الرجلين جزاؤه جهنم ، يساق إليها مذموما مخذولا ، أما أنت أيها الحبيب فلست غافلا : فالغفلة صفة القاعدين الذين لا يصلحون دنيا ولا ينصرون دينا ، ولست كذلك متكبرا ، فالكبر لا يليق بك وأنت ابن دعوة تطلب النصر بالفقر ، وترجو العزة بالذل ، الفقر لله والذل للمخالق لا للمخلوق . وأما الرجاء أيها الحبيب ،

فهو الطمع في الأبواب التي لا تغلق ، والرحمة التي وسعت كل شيء ، والفضل الذي يعم الخلق جميعا ، المؤمن والكافر ، البار والفاجر ، والصالح والطالح ، وحسبك أن تقرأ : ﴿ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ثم تستحضر ما ذكره الإمام القشيري في لطائفه وهو يندندن حول هذه الآية قائلا : ويقال : ادعوني بالسؤال . استجب لكم بالنوال والإفضال ، ويقال : ادعوني بالتنصل ، استجب لكم بالتفضل (1) .

الأول : دعاء المسألة .

والثاني : دعاء العبادة .



وهذا التقسيم ليس وليد ذهني ولا ثمرة فكري ، وإنما يأتيك به شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله وهو يأبي دائما إلا أن يتحفنا بمعانيه ، وينفحنا بخواطره التي هو في الأغلب لم يسبق إليها ، بل كان دائما هو السابق وله الفضل على اللاحق ، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء يقول رحمه الله شارحا المعنى المراد بكل قسم من أقسام الدعاء : (ودعاء المسألة هو : طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه ، وكل من يملك الضرر والنفع فإنه المعبود بحق . أما دعاء العبادة فهو الذي يتضمن الثناء على الله بما هو أهله ، ويكون مصحوبا بالخوف والرجاء) (2) .

نحن إذن أيها الحبيب في الدعاء أمام روضتين لا واحدة ، فلا يضررك بأيها نزلت ، وعلى أي منها حللت وتقلبت : روضة الطلب ، تسأل فيها ما تشاء ، وتطلب ما تحب ، والكريم منك قريب ، ولقلبك طبيب ، ولدعائك سميع مجيب ، يكشف الضر ، ويمنح العافية ، ويجود بالمعروف ، ويتفضل بالإنعام .

ثم روضة الثناء ، تحمد فيها مولاك ، وتثنى على ربك فهو أهل الثناء والمجد ، وأهل أن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يطاع فلا يعصى .

هاتان أيها الحبيب روضتان للدعاء ، لن يضررك أبداً بأيها نزلت ، وحططت رحالك وترىضت ، ولكن دعني أهمس في أذنك ، وأنت من الرواحل التي تحمل القوم ، وتجبر

(1) لطائف الإشارات . ج 3 ص 313 . ط الهيئة المصرية للكتاب .

(2) التفسير القيم . ص 243 .

الخلق إلى الإصلاح جرا ، وتأطرحهم على الحق أطرا ، دعنى أهنس في أذنك : عليك بأعلى المنزلتين وأزكى الروضتين وأحب القسمين إلى ربك ، وهو الثاني ، فاشغل نفسك بالشاء يمدك مولاك بما تشاء ، ويجزل لك العطاء ، وأكثر من التسبيح والتنزيه والحمد والتمجيد ، يمنحك ما تطلب ، ويعطيك ما ترغب ، وتذكر دائما ما حكاك لك كعب الأحبار حيث يقول : إنا نجد في كتاب ربنا المنزل على أنبيائه : إن الله تبارك وتعالى يقول : من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيه فوق ما أعطى السائلين (1) .

ونعيش الآن أخي مع جملة أسباب ، تساعد على فتح

الأبواب ، أسباب تعجل القبول ، وتعين أصحاب

الأيدي الممدودة ، والأكف المتضرعة على الوصول

، وهي وقفة مهمة لا بد منها ، ولا يجدر بنا ونحن

في روضة الدعاء أن نتجاوزها حتى نعلم ونتعلم ،

ونذكر ونذكر ببعض الآداب المعينة على رفع الحجاب ،

وجملة من الأسباب تساعد على فتح الأبواب ، لينطلق الدعاء

دون حاجز فيخترق السبع الطباق ثم يصل إلى العرش ، في الوقت الذي يدور صاحبه فيه على الأرض أو يتقلب على الفرش .

هذا أول أدب من آداب الدعاء ، وأول ريشة تتركب في جناحه ،

أن تتخير الوقت ، وتغتني أوقاتا بعينها ، فإذا كان الدعاء

مطلوبا في كل حين ، وعلى آية حال ، فإن للقبول أوقاتا

هو فيها أرجى ، وهي به أنسب وأليق ، فيوم الجمعة

ووقت السحر ، وعند نزول المطر ، وفي يوم عرفة ،

ورمضان وليلة القدر ، إلى غيرها من الأوقات المرطبة بالنفحات ،

والمحملة بالخيرات ، وأوصى نفسي وأوصيك أيها الحبيب بوقت السحر ، فوقت السحر

دواء كافي ، وبلسم شافي ، غال ثمنه ، مرتفع سعره ، قليل طلابه ، كثير خيره ، ظاهر

فضله ، وإنما أغلاه ورفع سعره نزول الملك فيه ، نزولا يليق بجلاله ، ليعرض فضله ،

شروط القبول وأجندة الوصول

أولة تخير الوقت

وينشر رحمته ، ويقول - كما في صحيح مسلم وسنن الترمذي - : أنا الملك . أنا الملك . من ذا يستغفري فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر ، ولأجل هذا كان الصالحون يضمنون بهذا الوقت أن يضيع في النوم ، أو يهدر في اللهو ، وتأمل حال هذا العبد الصالح ، ثم اضرب كفا بأخرى من التعجب ، وقل : سبحانك يا من خلقت هذا وأضرابه من الربانيين الذين برهنوا للدنيا على عظمة الإسلام وريادة المسلمين ، بإخلاص النية وصدق المهمة وإحسان العمل ، فقد روى أن طاووسا جاء في السحر يطلب رجلا ، فقالوا : هو نائم ، فقال ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر ⁽¹⁾ . سبحان الله !! ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر ، نعم أخي ، وكيف ينام عاقل في وقت يتجلى فيه المليك على عباده ، ويتنزل عليهم برحماته ، ويفيض عليهم برضوانه ؟ وهل تذكر هذه المرأة أخي ؟ هل تذكر تلك الربانية التي قيل لها : ألا تنامين ؟ - وقد أكثرت من القيام - فقالت : وكيف أنا وحبيبي لا تأخذه سنة ولا نوم ؟ يا الله ما أروع هذا المعنى ، وما أعظم هذه المنزلة ، نحن هنا أمام قمة عالية ، وأفق لا يكاد يطل ، لا يتثنى لأحد الناس أن يسبح فيه أو يرتقيه ، فهؤلاء تلاميذ مائدة القرآن ، وطلاب مدرسة الحبيب ﷺ صاروا من بعده أئمة الدنيا ، فبهذا هم اقتدى ، ورحم الله الشافعي حيث قال .

وما تدري بما صنع الدعاء

ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

أتمهزأ بالدعاء وتزدرية

سهام الليل لا تخطى

إن ربك أدنى إليك مما تتصور ، وأقرب إليك - كما يقال - من

حبل الوريد ، فإذا جلست للدعاء وبسطت كف

الرجاء فكن على يقين أن ربك قريب ، يسمع

دعائك ويرى مكانك ، فاحذر الاعتداء في الدعاء ،

واخفض صوتك ، حتى تشعر براحة القرب ،

ولذة الوصل وحلاوة الدعاء ، وإذا كانت الحكمة

ضالة المؤمن فخذها ولو من أعرابي يحسن السؤال ليظفر

بحسن الجواب وفصل الخطاب ، فقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن أعرابيا قال : يا



رسول الله : أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ، فسكت النبي ﷺ . فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:186] فربك أخي قريب ، ومولاك ليس بينه وبينك مسافة ، وكلما أخفيت الدعاء ، كلما تذوقت معنى القرب ، وطويت في نفسك مراحل البعد ، وهذا سلوك الأنبياء ، وما خبر زكريا عليه السلام بعيد ، وبدايات سورة مريم لها حلاوة وعليها طلاوة ، وسأتركها تحدثك عن نفسها ، يقول تعالى : ﴿ذَكَرْهُمْ رَبُّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ [مريم:2،3] أكمل قراءة الآيات وعش معها محلقا ، ثم انظر ماذا يقول فيها سيد رحمه الله تعالى : (إنه يناجي ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم ، في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ، ويكرب صدره ، ويناديه في قرب واتصال ، " رب " بلا واسطة حتى ولا حرف نداء ، وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ، ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى ، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يثبته ما تضيق به صدورهم ... " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم " ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى هو أقوى وأقدر ، وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه) (1).

ألا تلاحظ أخي ، أننا مع سيد في ظلال وارفة ، وعيون جارية ؟ إنه يخلق بنا في آفاق من الربانية عال لا يدركه إلا أصحاب القلوب الحية والنفوس التواقية ، فأخفض عند الدعاء صوتك ، وناد في خفاء ربك كما فعل العبد الصالح زكريا ، واعلم أن في إخفاء الدعاء فوائد منها إنه :

- 1 - للإخلاص ادعى .
- 2 - وفي الخشوع أبلغ .
- 3 - وإلى الأدب أقرب .
- 4 - وفي اليقين أعظم ، لأن صاحبه قد وقر في صدره أن ربه قريب يسمعه .

أخي هل رأيت السائل كيف يبدو ؟ هل رأيت هيئته ؟ إن يده ممدودة ، وكل عضو في جسده يقول : أنا الفقير ، ولذلك لا تخطؤه العين ، ولا يجاوزه البصر ، ونحن أخي أمام الخالق ذلك الرجل ، فقراء نتسول الفضل من صاحب الفضل ، ونرجو النوال من صاحب الأفضال ، نعم أخي كلنا ذلك الفقير الذي وصفه الإمام



ابن القيم بقوله : (الفقير هو الذي حاجاته إلى الله بعدد أنفاسه أو أكثر ، فالعبد له في كل نفس ولحظة وطرفة عين حوائج إلى الله لا يشعر بكثير منها ، فأفقر الناس إلى الله من شعر بهذه الحاجات ، وطلبها من معدنها بطريقها ، إن هذا الفقير الذي يجلل الإنسان في كل لحظة ، ويملك عليه كل خليجة من خليجات نفسه ، هو أفضل ما تقرب به العبد لربه ، وخير ما توسل به المخلوق لخالقه ، يقول أبو حفص : أحسن ما توسل به العبد إلى مولاه : دوام الفقر إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال ⁽¹⁾ ، يا الله على الحكمة حين تفيض سلسبيلا على ألسنة الفقراء ، إنهم والله قوم أظهروا الله فقرهم ، وشكوا إلى مولاهم ضعفهم ، فأغناهم من فضله ، وحباهم من نعمه ، ودفع عنهم كل مكروه وسوء ، إنها إذن ثلاثة أشياء يحتاج إليها كل سائل ، ويفتقر إليها كل طالب :

1- إظهار الفقر .

2- التزام السنة .

3- أكل الحلال .

فإذا تمكن من قلبك معنى الفقر ، واستشعر كل عضو فيك حاجته إلى مولاه ، فمد يدك كحال السائل ، واجلس كما يجلس المسكين ، واسأل سؤال الخاشع الدليل ، وعندها ستأتيك النفحات ، وتنزل عليك الرحمت وتأمل هذا الخبر : ذكر أن أبا سليمان الداراني رحمه الله تعالى قال : كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان ،

(1) طريق المهجرتين . ص 46 . مصدر سابق .

فغلبني البرد ، فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها ، وغلبتني عيني فنمت ، فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان ، قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها ، قال : فأليت على نفسي ألا أدعو إلا ويدي خارجتان حرا كان أو بردا⁽¹⁾ .

ثم اطرق الباب أخي ، لكن بكف الذل ، وأصابع المسكنة ، واخضع لربك واخشع لمولاك وفتش في قلبك عن كل ذرة من كبر فاغسلها بماء الذل ، وطيبها برحيق الفقر وغير المسكنة والانكسار للواحد القهار ، فإنك إن فعلت ، نظر إليك مولاك ، ومن نظر إليه مولاه رحم ضعفه وجبر كسره ، وأغنى فقره ، وقضى حاجته ، وسد فاقته ، وأعطاه سؤاله ، هذا هو طريقك أيها الحبيب ، ولا



طريق غيره ، وإلا كان نداؤك صرخة في واد ، ودعاؤك نفخة في رماد لا يحقق غاية ، ولا يمضي إلى نهاية ، وما أجمل ما يقوله ابن القيم في وصف الطريق إلى القبول : (فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى الله تعالى ، والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحده ، فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين ، لا يمكنه أن يسير إلا بهما ، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه)⁽²⁾ .

إن أعظم آداب الدعاء أيها الفقير ، أن تري ربك كل شيء وألا ترى نفسك أصلاً ، إلا بجهلها وفقرها وتمردا وعصيانها ، فنفسك إذن هي العقبة الكؤود بينك وبين أسباب الإجابة ، فأسقط هذه العقبة ، تفتح لك السماء أبوابها ، وتمدك الأرض بخيراتها ، ويعطيك مولاك مما سألت ومما لم تسأل ، والله در ابن عطاء الله حيث يقول في المحفوظ من حكمه : ما الشأن وجود الطلب ، وإنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، الله أكبر ، أظن أخي الحبيب أنه قد آن لنا أن ندرك أن حسن الأدب هو مفتاح القبول عند الطلب ،

(1) البداية والنهاية . ج5 ص 787 . ابن كثير .

(2) الوابل الصيب ، ص 14 . دار الكتاب العربي .

ولكن تعالى نكرر هذا القول ، ونعيد قراءة هذه الجملة : إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، أجرها على لسانك ، وأدرها في عقلك ، وتدبرها بقلبك ، وحاول أن تقبض بيدك على ما طاب من معانيها ، وسأقرب لك المعنى ، فمن حسن الأدب أن تمد يدك كحال السائل الفقير ، وأن تخشع نفسك كهيئة الطالب الذليل ، وأن ينكسر قلبك انكسار المساكين على أبواب الأغنياء كحال هذا العبد الصالح الذي قال عنه ابن رجب رحمه الله : وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكنا مطرقا برأسه ، ويمد يديه كحال السائل ، فتأمل هذا المشهد أخي ، إنه يقضى الليل على حال واحدة ، فيجلس في سكون وصمت ، رأسه إلى الأرض ، ويده نحو السماء ، لا يسأل شيئا بلسانه ، وحاله تنطق بكل شيء ، حبس الخوف لسانه ، وأغلق الحياء فمه ، ولكن كل جارحة من جوارحه تصرخ قائلة : مولاي ، أنا الفقير إليك .

وعليك أخي الحبيب قبل أن تطرق الباب ، أن تقدم بين يدي ذلك إقرارا بالذنب ، واعترافا مفصلا بالتقصير ، واسترجع أحداث يومك وليلتك ، وأعد النظر في تاريخك القريب والبعيد ، كل هذا بينك وبين نفسك ، ثم اعترف : كم فريضة ضيعتها ؟ وكم نافلة نمت عنها ؟ كم من خير دعاك مولاك لتسارع فيه



فقدت عنه ، وفي المقابل أخي : كم من ذنب فعلته ؟ وكم من إثم ركبته ؟ وكم من مخالفة دعاك مولاك للابتعاد عنها فسارعت فيها ؟ أظن أن مثلي ومثلك لو فتح هذا الباب فلن يغلق ، فلن تستطيع العد ولا الحصر ، فلا أقل من الاعتراف بالذنب والإقرار بالعيب ، ونسبة الشر إلى النفس والخير إلى الرب ، فلعلنا ندرك بذلك ما خسرناه بتقصيرنا في حق الله وتفريطنا في جنبه ، واقرأ معي هذا الخبر : يقول الإمام الأوزاعي رحمه الله : خرج الناس يستسقون ، وكان فيهم بلال بن سعد - من خيار التابعين - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ، أستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : بلى ، فقال : اللهم إنا سمعناك تقول : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ

سَكِيلٌ ﴿[التوبة: 91] وقد أقررنا بالإساءة ، فهل تكون مغفرتك إلا مثلنا ؟ اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا ، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ⁽¹⁾ .

وإنه لمشهد معبر ، ولوحة مؤثرة ، فتأمل سؤاله العبقري : ألستم مقرين بالإساءة ؟ إنه سؤال ملهم ، يحدد الطريق التي لا طريق سواها نحو أبواب السماء ، وبركات الأرض ، فاللهم رب السموات والأرض إنا مقرون بذنوبنا ، معترفون بتقصيرنا ، فاجبر إله العالمين كسرنا ، وارحم ضعفنا وتقصيرنا ، فلا رب لنا سواك ، ولا إله لنا غيرك ، وطمعنا في رحمتك بلا نهاية ، وحسن ظننا بك لا حدود له ، فأدخل عظيم ذنوبنا في عظيم عفوك يا كريم .

واعلم أيها الحبيب أن أبواب السماء لا يسدها ، وآفاق الرجاء لا يحجبها مثل الذنب ، فالذنوب في شجار دائم ، ومعركة أبدية مع الإجابة ، معركة ميدانها الأفق ، وساحتها عنان السماء ، تنزل الإجابة فيستقبلها الذنب ويبدأ الصراع ، فإذا لبست ثياب الفقر ، وأحسست بشدة الحاجة إلى مولاك ، فأحدث قبل الدعاء توبة بشروطها ، ولا تقل - بغفلة - مما أتوب ؟ فتقصيرنا في جنب الله واضح ، وقعودنا عن الطاعة وأوامر المولى فاضح ، وتجرونا على المعصية صارخ وظاهر ، وكل نفس يدخل الصدر أو يخرج شاهد على ذنب لنا أو خطيئة ، وجوارحنا كالرحى تطحن المعاصي ليل نهار دون كلل أو ملل ، ثم تسأل أيها الحبيب : مما أتوب ؟ إن التوبة لازمة لك مع كل نفس ، ومع التوبة يأتي الفرج ، وسل سفیان الثوري يأتيك بالخبر ، ويتحفك بهذه اللوحة : (بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين ، حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم : لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكل ألسنتكم من الدعاء ، فإني لا أجيب لكم داعيا ، ولا أرحم لكم باكيا ، حتى تردوا المظالم إلى أهلها ، ففعلوا فمطروا من يومهم) .

فإذا كانت المظالم تمنع الإجابة ، فإن كل واحد من أخواتها يفعل مثل ما تفعل ، فاللقمة الحرام تمنع الإجابة ، والنظرة الحرام كذلك ، والكلمة الخبيثة تمنع الإجابة ، والظن السيئ كذلك ، وهكذا دواليك ، فاعتظ ولا تكن من الغافلين .

أيها الأخ الحبيب ، يا رفيق الرحلة ، وأنيس الدرب ، وشريك المحنة والمنحة ، إن العمل الصالح يرفع الدعاء ، ويحمله إلى عنان السماء ، حتى يصل إلى العرش ، فلا يزال يطوف به طواف الموحدين حول البيت ، حتى إذا وجد صاحبه في بلاء فيدفعه ، أو في خير فينفعه ، فإذا وفقت لطاعة ، أو رزقك مولاك عملاً صالحاً ،



فارفع بعده يدك وسل مولاك من فضله العظيم ، وخيره العميم ، ورحمته الواسعة ، ونعمته السابغة ، فإن أبواب السماء مفتوحة ، والمولى الكريم إذا استعمل عبداً في طاعة ، قبل منه الدعاء في ذات الساعة ، وكان ما قدمه من عمل شافعاً له إذا عزت الشفاعة ، وتأمل هذا الخبر العجيب ، وأعلم أن الله تعالى لا يضيع إحسان المحسنين روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : أتى سائل امرأة في فمها لقمة ، فأخرجت اللقمة وناولتها للسائل فلم تلبث أن رزقت غلاماً ، فلما ترعرع دخل خبائها ذئب فاحتمل ولدها في فمه ، فخرجت تعدو في أثر الذئب وهي تقول : يا رب ابني ، ابني ، فأمر الله تعالى ملكاً أن يلحق بالذئب ويأخذ الصبي من فمه ، ويقول لأمه : الله يقرئك السلام ويقول لك : لقمة بلقمة (1) .

صدق أخي أو لا تصدق ، ولكن المعنى واضح ومقرر : أخرجت اللقمة من فمها فوضعتها في فم السائل ، فأخرج الله ولدها من فم الذئب ووضعه في حجرها جزاء وفاقاً ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

قدم نجد : إن أي القرآن حق ، ودلائل صدق على ما نقول ، وقد جاءك نبأ يونس عليه السلام عندما سقط في بطن الحوت ، واحتوته ظلمات ثلاث : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، فماذا كان من أمره ؟ سادع القرآن يحكى ، يقول الله تعالى :

(1) في ملكوت الله . ص 78 . عبد المقصود سالم . مطبعة الشمري .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87]، فلم يتأخر الرد ، وجاء في وقته ، ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: 88]، أتدري أيها الحبيب لماذا جاءه الرد وأسرع إليه الجواب ؟ إن القرآن يتكفل بالجواب ، يقول مولانا عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصفات: 143، 144] ، لقد قدم لنفسه في الرخاء عملا نفعه يوم تقلبت الأمور ، وتبدلت الأحوال ، وحلت الشدة محل الرخاء ، فلولا أنه قدم لنفسه لظل في هذا الضيق يعيش إلى يوم يبعثون ، واسمع نصائح القوم فإنها من مشكاة الوحي تخرج ومن حول العرش تنزل ، فتأتى معها بالروح والريحان والعافية والشفاء ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك قال: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإن يونس كان عبدا صالحا ذاكرا لله ، فلما وضع في بطن الحوت قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ . تأمل هذا أيها الحبيب ثم قارنه بما بعده : وإن فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا لذكر الله فلما أدركه الغرق قال ﴿ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 90] ، ف قيل له : ﴿ ءَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: 91] ، والله إن في ذلك لعبرة ، ولكن أين الذين يعتبرون ؟ فابعث أخي بين يدي نجواك عملا صالحا يمهد للدعاء طريقه ، ويفتح له الأبواب فذلك دأب الصالحين وسنة النبيين ، وأنت وارث علم النبوة ، ورائد إلى الإصلاح ، فخذ بأسباب الفلاح وقدم لنفسك خيرا .

وأختم هذه الجملة من الآداب أيها الحبيب ، بسيد الآداب كلها ، فحذار ثم حذار أن تغفل عنه أو تنساه ، أتدري ما هو ؟ إنه الأدب الذي يسبق الدعاء ويلحقه ، ويأتي قبله ولا بد كذلك يأتي بعده ، وأقصد : ذكر الله وشكره والثناء عليه ببعض ما هو أهله ، ومع الثناء على المولى وذكره وشكره لا بد من ذكر الحبيب ﷺ بالصلاة عليه



فإن الدعاء لا يجاوز رأسك حتى تصلي عليه ، وإلا فلم نفسك وحدها إن أخطأتك الإجابة أو تأخرت ، فعن فضالة بن عبيد الأوسي قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يحمده الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال : عجبت أيها المصلي ، ثم علمهم رسول الله ﷺ ، " وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يصل فمجد الله وحده وصلى على النبي ﷺ فقال ﷺ : ادع تحب وسل تعط⁽¹⁾ . فإياك أن تعجل ، وتمهل ثم تمهل ، ومجد ربك وصل على حبيبك ﷺ ثم ادع بعدها وأنت على يقين بالإجابة.

لقد أدرك سلفك والذين سبقوك بإحسان ما لهذا الأدب من تأثير في قبول الدعاء ، فراحوا يبعثون إليك الهدية بعد أخذتها ، ويرسلون لك الإشارة بعد الإشارة ، لتفهم منهم ، وتستقبل منهم ، يقول عمر رضي الله عنه : إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك⁽²⁾ ، فخذ بهذا الأدب ولا تتردد ، وتمسك به تسعد فإن الثناء خير من الدعاء ، ومن شغله الذكر عن المسألة نال ما لم ينله السائلون من الخير والأجر ، فما بالك إذا جمعت بين الحسنين ، فأثنت ثم دعوت ، فتأدب أخي بهذه الآداب وانتظر بعدها " أستجب لكم " ولا تنس أخاك بدعوة هو أفقر الخلق إليها.

كلنا فقير ، وكلنا يمد يده ، يسأل ويطلب ، يدفعنا الأمل ويجدونا الرجاء ، أن نتعلم لنعلم ، وأن نعمل اليوم ما ينفعنا يوم الحصاد ، فعليك بالدعاء أخي ، فهو سلاحك ، وهو حصنك ودرعك ، واحذر في هذا المقام عدة موانع ، ترد الإجابة أحياناً أو تؤخرها ، ومصيبة أن تحرم الإجابة



وعذاب أن تتأخر عنك ، وقد رصد الربانيون هذه الموانع ، وقدموها إليك لتتجنبها ما استطعت ، أو تتخطاها إن استطعت ، وهأنذا أذكرك بها واحدة بعد الأخرى ، وتذكر دائماً أن هدايا القوم أئمن من أن تلقى ، وأعظم من أن تهمل ، وإنك إن فعلت ، فلم نفسك وحدها ، وإن تأخر عنك الجواب فلا تسل لما تأخر ، ولكن تذكر " قل هو من عند أنفسكم " .

(1) أبو داود والنسائي ، حديث حسن .

(2) رواه الترمذي .



إن الدعاء أيها الحبيب شفاء ، فهل استطعت أن تدرك ذلك ؟
 أم أنك لا زلت تستثقله ؟ إنها والله حقيقة دينية ،
 وقاعدة شرعية ، وتجربة بشرية ، إفراغ الهم يترك
 القلب في سلام ، وبث الوجد يملأ الصدر
 سكينته ، وشرح الحاجة يعود على النفس بالصبر
 والرضا ، فإذا نزلت بساحتك الهموم ، وأحاطت بك

النوازل ، ورماك الدهر بالدواهي ، وعجز الظهر ، وضاق
 الصدر ، وتألم القلب وياتت النفس على بعد خطوات من اليأس والاستسلام ، فقط
 جرب أن تمد يدك ، وتفتح قلبك ، وأن تبث لمولاك شكواك ، فالشكوى راحة ، وبث
 الهموم باب إلى السلام والسكينة ، فإذا شكوت استرحت ، وأطفأت نارا توشك أن
 تحرق ، وأوقفت طوفانا يوشك أن يغرق ، وهذا لا شك ربح عظيم ، ثم يأتيك الجواب
 بعدها زيادة من مولاك ونعمة ، وتفضلا منه وكرما ، فلا تتعجل ، فإنه والله لمن العجب
 أن تتعجل الجواب بعد أن فزت بالراحة وظفرت بالسكينة ، ورجعت بعد الدعاء
 بسلامة الصدر ، وسكينة النفس ، وماذا يريد المرء من دنياه بعد هذا ؟ إنك مع الدعاء من
 الفائزين . والقسمة معروفة ، فقد أخبرك حبيبك ﷺ أن لك بالدعاء **واحدة من ثلاث** :

1- الجواب في الحال .

2- دفع بلاء لا تعلمه .

3- الادخار ليوم الحاجة .

أليست كلها مكاسب ؟ مع ما تقدم من راحة بالشكوى ، وسكينة بإفراغ الهم ، فلم
 العجلة التي تؤدي إلى اليأس ثم ... إلى ترك الدعاء ؟ يقول ابن القيم رحمه الله : (لا
 تسأم الوقوف على الباب ولو طردت ، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت ، فإن فتح الباب
 للمقبولين دونك ، فاهجم هجوم الكذابين ، وادخل دخول الطفيلية ، وبسط كف
 "وتصدق علينا" ⁽¹⁾) ، يا الله ، ما أروع هذا الكلام ، لا تسأم الوقوف وإن طال بك
 المقام ، ولا تمل من الطرق وإن كلت يدك ، فإن من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ،

ففرج المولى قريب وبابه واسع ، وعطاؤه دائم ، فلا تتعجل ، وإن كان الإلحاح مع الخلق سوء أدب فإنه مع الخالق عين الأدب ، فاطرق الباب وحاول الدخول ، وتملق ربك ، واهجم مع من دخل وإن لم تدع ، وارفع كفك وأرق ماء وجهك ، واسأل مولاك أن يتصدق عليك ، فإن ربك يحب ذلك ، ولن يمل حتى تمل ، واحذر أن تمل أنت أو تغضب ، وكن كمورق العجلى الذي قال عن نفسه : ما امتلأت غيظا قط ، ولقد سألت الله تعالى حاجة منذ عشرين سنة ، فما شفيعني فيها ، وما سئمت الدعاء ⁽¹⁾ ، فانظر أخي الحبيب ، عشرون سنة كاملة ، يطلب حويجة ، ويسأل مولاه شيئا ، لم يدرکه ولم يمل الطلب ، عشرون سنة ، لم يتعجل ولم يغضب ، ولم يغادر الباب ، فاحذر أن تتعجل .

إن السائل أيها الحبيب ، متلبس بفقره ، مشغول بحاجته ،

يدفعه ذله ، وتحركه فاقته ، عرف نفسه بفقرها ،

وعرف ربه بغناه ، فهو يسأل مسألة الدليل ،

خاشع النفس منكسر القلب ، مسكين الفؤاد ،

والتكلف لا يناسبه هذه الحال ، ولا محل له في هذا

الموطن ، فدع سجيتك تنطق ، واترك فطرتك تتوسل

وتطلب ، ودع عنك التشدد والتفهيق والغلو والاعتداء

وتأمل هذا الخبر : سمع عبد الله بن مغفل ابنا له يدعو ويقول : اللهم إني أسالك القصر

الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال له : يا بنى سل الله الجنة ، وعذبه من النار ،

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور ⁽²⁾ .

انظر أخي الحبيب : سل الله الجنة وعذبه من النار وكفى ، دون تكلف أو اعتداء ،

هذا هو هدى الحبيب ﷺ وفقه أصحابه ، أخذه القوم بصدق وبلغوه بإخلاص ، فقام

هذا الحوار يعلم ابنه ما تعلمه هو من أستاذه ، فكان أمينا في النقل مخلصا في النصح ،

لقد سمع ولده يدعو ، ورأى في دعائه زيادة وتكلفا ، فعلمه كيف يدعو ، ولو بكلمات

خفيفات ، لم تترك خيرا إلا تضمنته ، ولا شرا إلا أبعدته ، وماذا يريد العبد بعد ذلك ؟



(1) نزهة الفضلاء . ص 398 .

(2) رواه أبو داود بسند صحيح .

هذا ومن التكلف أيا الحبيب : السجع في الدعاء ، وهو الكلام المقفى دون وزن ، فإذا خرج من القلب وجرى على اللسان ببساطة ويسر فلا حرج فيه ، أما أن يشغل الإنسان باللفظ ، ويضع همه في القافية وموسيقاها فإن مقام الدعاء أرفع من هذا وأجل ، ولأجل هذا جاء النهي عن السجع على لسان بعض السلف ومنهم ابن عباس رضي الله عنه ، الذي روى عنه أنه قال : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، وإنى عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلونه ، وهذا هو الحق أخي ، وعليه مدار الأمر ، فالزم هدى النبي وصحبه وتذكر دائما هذه النصيحة : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق والافتخار ، فدع التكلف ، واعلم أخي أن في أدعية القرآن الكريم ما يفي بحال كل سائل ، ويسد حاجة كل طالب ، وفي مآثور الدعاء عن خاتم الأنبياء ﷺ ما يغني من فقر ويسمن من جوع ، وهو خير من أن يدعو الإنسان فيضر نفسه أو يدعو بما لا مصلحة فيه ، فليس كل سائل يحسن الطلب ، وما كل داع يجيد فن الدعاء .

إذا سأل إنسان أخاه حاجة ، فلن يفعل إلا وهو على يقين تام بقدرته على تلبية حاجته وتحقيق رغبته ، والله المثل الأعلى ، فكيف يكون حال من يسأل مولاه وسيده وولي نعمته ؟ فإذا سألت ربك فسله وكلك يقين أنه يرى مكانك ، ويسمع كلامك ، ويحيط علما بحالك ، وكن كذلك على يقين بأن الإجابة أقرب إليك



من جبل الوريد ، وأن فرجه أدنى إليك مما قد تتصور ، فادع أخي بهذا اليقين ، وأزح الشك بعيدا حتى لا يحول بينك وبين الإجابة ، واعلم أن الشك في حصول المطلوب وتحقيق الرجاء ينتج عن أمرين ينبغي أن ننزه موالك عنهما :

الأول : الشك في غناه .

الثاني : الشك في كرمه وجوده وبره .

وهذا لا يليق ، فنحن نتقلب في ملكه ، وننام ونستيقظ على إحسانه ولطفه ، فإذا دعوت فاجزم ، وإذا سألت فافعل وأنت على يقين تام بأن الفرج قريب ، واليسر

حاضر ، والفجر لا محالة قادم ، وهي وصية حبيبك ﷺ إذ يقول : لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، وليعزم المسألة فإنه لا مستكره له (1) ، وصدق الحبيب أخي ، فربك لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ، فاجزم في طلبك وأد وظيفتك ، وأبن فقرك ، وأظهر عظيم مسكنتك ، ودع ما تبقى لمولاك فإنه يفعل ما يشاء ، ولا راد لمشيئته ، إن الشك أيها الحبيب قد يأتيك أحيانا من قبل نفسك ، وما تعرفه عنها من قعود عن واجب ، أو تقصير في حق ، وهذا مدخل من مداخل الشيطان إليك ، فلا يمنعك ما تعرف من نفسك أن تمد يدك وأن تسأل مولاك ، واحذر أن تترك الدعاء لذنب وقعت فيه ، أو معصية سولتها نفسك أو زينها شيطانك ، واسمع سفيان بن عيينة رحمه الله يهمس في أذنك : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فإن الله تعالى أجاب دعاء شر الخلق إبليس اللعين ، إذ قال : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿ [الحجر:36،37] ، ما رأيك في هذه الوصية أخي ؟ إنها والله غاية في الحسن وآية في الواجهة ، فمهما بلغ شرك فإبليس أشد شرا ، ومهما عظم ذنبك فذنب إبليس أعظم ، ومع ذلك فقد سأل النظرة وأجيب إليها .

إن أقصى ما يطلبه الشيطان منك أخي أن تتوقف عن الدعاء ، وأن تكف عن الطلب ، خوفا من ذنبك أو شكا في ربك ، فاحذر أن يظفر منك بهذا ، واعتصم بمولاك ، فقد ضمن لك الجواب بأفضل مما تطلب ، ولكن في الوقت الذي يحده هو ، وبالشكل الذي يريده ، وما عليك إلا أن تدعو وأنت موقن بالإجابة .

إن أقصر طريق إلى الإجابة أيها الحبيب ، أن تدعو بلا ملل ، وأن تسأل بلا انقطاع ، فإذا حضر قلبك ، وانطلق لسانك ، فالزم مكانك ، ولا تغادر سجدة ، وادع بما يفتح عليك مولاك ، وإياك إياك أن تضع لحظة والحال كذلك ، فتتحرر عليها حيث لا تنفع الحسرة ، وتندم يوم لا ينفع الندم ، ولك في



سيدك أسوة ، وفي حبيب قلبك ﷺ عبرة ، لقد شغله الشئاء والدعاء يوم عرفة عن كل شيء حتى ذهل عن الطعام والشراب ، فكان من الطرائف أن ظن أصحابه أنه ﷺ صائم ، ولم يكن صائماً ، ولكنه اكتفى بطعام الروح وشراب النفس من ذكر وثناء ودعاء ، تقول أم الفضل بنت الحارث : إن ناساً تماروا عندها يوم عرفة في صوم رسول الله ﷺ فقال بعضهم : هو صائم ، وقال بعضهم : ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدر من لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشرب⁽¹⁾ . الله أكبر ، تأمل أخي سلوك حبيبك المصطفى ﷺ ، إنه يغتنم مواسم الخيرات ، وأيام النفحات ، وساعات الإجابة ، وعلى رأسها يوم عرفة ، أفضل الأيام ، ساعاته معدودة ، ومدته محدودة ، فاحذر أن ينصرم منك دون أن تسأل ربك أن يرزقك خيره وأن يمنحك بره ، وكن بخيلاً بثوابه أن تمر ، وبدقائقه أن تتسرب من بين يديك فإن الحياة - كما قيل - دقائق وثمان - ، ثم اقرأ وتعجب مما يرويه أسامة بن زيد إذ يقول : كنت رديف رسول الله ﷺ بعرفات ، فرفع يديه يدعو ، فمالت به ناقته فسقط خطامها ، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى⁽²⁾ بأبي أنت وأمي ونفسي يا رسول الله ، انظر أخي وتأمل ، واسبح بعقلك وتدبر بقلبك هذا الهدى النبوي الأكمل ، وإني استحلفك بالله أخي أن تعيد قراءة هذه الجملة : فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى ، يا الله ! لقد مد حبيبك يداً تتناول الخطام والأخرى لم تغادر مكانها تسأل وتلح في السؤال وتجزم في الطلب ، إنه مشهد يدفع المؤمن عمره ليرى مثله ، ووصف من أسامة من أعجب ما رأى الإنسان وسمع في الحرص على الدعاء ، واغتنام اللحظات ، ولكن لما العجب وهذا سيد الخلق ﷺ فكلامه سيد الكلام ومواقفه سيدة المواقف ، ومن أسامة إلى جابر لتتعلم ، وتنعظ ونسبح في رياض من الجمال تنعش الروح وترطب النفس ، يقول جابر ﷺ : ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس⁽³⁾ ، وأظنك أخي

(1) متفق عليه .

(2) أخرجه النسائي والإمام أحمد .

(3) أخرجه أبو داود وابن ماجه .

ستقف لا محالة عند قوله : فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وهذا من حقلك ، فحيبك ﷺ يدعو في هذا اليوم دون كلل ويسأل ربه باجتهاد دون ملل ، ويستفتح أبواب السماء بكل ما أوتى من قوة ، فهل آن لنا أن نعى الدرس وأن نستمر في الدعاء دون توقف ؟ إن من شروط القبول ألا تتوقف . فأين همتهك أيها الحبيب ؟ .

هل رأيت أخي أو سمعت أن أحدا دخل دار ملك كريم يسأله حاجة ، وقلبه معلق بغيره ، أظن أن هذا لا يكون ، فكيف يليق بك أن تطرق باب مولاك ، وتجلس في حضرته ، يدك إليه ممدودة ، وقلبك في كل واد يسرح ، وفي بحار الهوى يسبح ، ونفسك خلف الزوجة والولد والمال تجرى وتلهث ؟ لا أيها الحبيب



وألّف لا بعدها ، هذا لا يليق بجلال مولاك ومقام سيدك وولي نعمتك ، ولا يليق بالأحرى بك وأنت الفقير الذي ظهر فقره ، والضعيف الذي بدا ضعفه فراح في كل حين يطلب النصر ويرجو القوة ، ويستمد العون ويسأل التمكين ، إن دعاء كهذا لن يجنى المرء من ورائه سوى إضاعة الوقت وربما يلحق بها الطرد والمقت فأحضر القلب قبل البدن ، والروح قبل الجسد ، فمولاك لا ينظر إلا لقلبك ، ولا يراقب إلا نفسك ، فإذا ما فتح عليك مولاك فخشعت نفسك ، وخفق قلبك ، واهتزت روحك ، واقشعر جلدك ، فثم الحلاوة كلها والجمال كله ، والنعيم المقيم ، إنها إذن حلاوة الدعاء ، وما أدراك ما حلاوة الدعاء ؟ ، علامة قبول ، وإشارة وصول ، وعلامة رضا ، يفشى لك سرها هذا العبد الصالح فيقول : لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال : ما أراني إلا مقتولا وسأخبركم : إني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا الله الشهادة ، فكلّا صاحبي رزقها ، وأنا أنتظرها ، قال : فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء ⁽¹⁾ . إن القلب حين يحضر الدعاء ، تتحطم القيود ، وتزول الحدود ، وينشرح الصدر ، ويتذوق القلب حلاوة القرب ، وتشف الروح ، وتحلق النفس ، وتفرح بالمناجاة ، وتسعد بنعيم لا يدركه إلا الربانيون ، ولو علم به الملوك وأبناؤهم لجردوا من أجله السيوف ، ولقاتلوا على

حلاوته أولياء الله وأحباءه ، ولكن هيهات ، فوجل القلب ، وخلجة النفس ، وخفقه الروح خاصة بالمؤمنين ، يشرحها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: 2] ، وإليك ما يقوله سيد رحمه الله ، في تلك الحالة التي تصيب القلب المؤمن عند الذكر يقول : (إنها الارتعاشة الوجدانية التي تتاب القلب المؤمن حين يذكر ربه في أمر أو نهى ، فيغشاه جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ، ويتمثل عظمة الله ومهابته ، إلى جانب تقصيره هو وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة ، أو هي كما قالت أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى ، قالت : إذا وجدت ذلك فادع عند ذلك ، فإن الدعاء يذهب ذلك ، إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ، ليستريح منها ويقر ، وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهى فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله ، وجلا وتقوى لله (1) .

إن حضور القلب إذن وإدراكه حال الدعاء شرط لازم من شروط القبول ، أما حضور البدن وانصراف الروح إلى أمنياتها ، وطيران القلب في شهواته ، فذلك لا يسمن ولا يغنى ، ولذا حذر النبي ﷺ من تلك الحال فقال : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاه (2) .

إن الحرام داء ، والحلال شفاء ، وكل شيء يمرق إلى جوفك فيه شبهة فهو بلاء ووباء ، فهل سألت نفسك مرة عن مصدر ما يدخل جوفك ويستقر في بطنك ؟ هل تريثت شيئا قليلا قبل أن تلقى اللقمة في فمك وفكرت : أهى طيبة المعدن طاهرة المصدر أم دنستها الشوائب ولوثتها الشبهات ؟

ووالله : إن الأمر جد ، والأثر خطير ، والعواقب وخيمة ، فرب لقمة من حرام لا تلقى لها بالا ، تفسد عملك



(1) الظلال ج3 ص 1475 .

(2) أخرجه الترمذي والحاكم .

وتحبط سعيك ، وتهدم بنيانك وأنت تظن أنك أحسن الناس صنعا ، وأعظمهم كسبا ، وأكثرهم ربحا ، ويضحك الشيطان ويسخر منك العدو ، وأدعوك أيها الحبيب لتأمل هذا الخبر ، جاء في شعب الإيمان للبيهقي عن يوسف بن أسباط قال : إن الشاب إذا تعبد قال الشيطان لأعوانه : انظروا من أين مطعمه ؟ فإن كان مطعمه سوء قال : دعوه يتعب ويجهد ، فقد كفاكم نفسه . يا الله إن الخبيث يعلم من أين يأتي الفقراء أمثالنا فانتبه ، وتذكر دائما أن العمل الصالح مع الحرام بنیان فوق رمال وسراب إلى زوال .

إن أكل الحلال أخي يفيد الجسم ، ويصحح الأعضاء ، ويجلب الشفاء ، وينعش الروح ، ويحصن النفس من كل داء ، ويزود العمر بالبركة والنماء ، وينور القلب ويرققه ، ويجلب له الخشية من الله تعالى ، والخشوع لعظمته ، وينشط الجوارح بالطاعة والعبادة ، ويزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ، ولأجل هذا كله خصك ربك أيها الحبيب بهذا النداء : ﴿ يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: 172] يقول سيد رحمه الله : (إن الله ينادي الذين آمنوا بالصفة التي تربطهم به سبحانه ، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام ، ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق ، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم ، فيشعرون أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات ، وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلائنه غير طيب ، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم)⁽¹⁾.

وقد استوعب الصالحون الدرس ، وأدركوا الحكمة ، والتقطوا الموعدة ، فأمنوا أن العمل لا يقبل ، وأن الدعاء لا يرفع ، إلا بالحلال ، وأن الحرام مانع من قبول العمل ، وحائط صد أمام الدعاء ، وخذ هذه النفحة من وهيب بن الورد يتحفك بها ، يقول رحمه الله : لو قمت مقام هذه السارية - العمود -

لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل بطنك ، حلال أم حرام⁽²⁾ ، لو قمت كالسارية في المسجد لا تفارقه ، وأضنيت نفسك في الطاعة ، وأذبت بدتك قاعدا وقائما ، ما نفعك



(1) الظلال . ج 1 ص 156 .

(2) جامع العلوم والحكم . ص 109 .

ذلك ، حتى تطيب مطعمك ، ويقول إبراهيم بن أدهم : رأيت عابدا يقوم إلى الصلاة بثقل ، فنظرت فإذا هو من عدم صفاء مأكله ، ولو أنه أكل حلالا ، لم يحصل له ثقل (1) ، اقرأ هذا الكلام أخي . وقف أمامه طويلا وتدبره جيدا ، واعلم أن الحلال الخالص ، نادر عزيز لا يطلبه إلا القليل ، ولا يحرص عليه إلا كل تقى نقى ، وهذا ليس اليوم فقط بل من قديم ، وما أجمل وأعلى قول يونس بن عبيد : ما ثم اليوم أقل من درهم طيب ، ولو وجدناه لاستشفينا به مرضانا (2) ، وهذا في زمانه ، فكيف أيها الحبيب بزماننا ؟ فطهر جوفك وأطب مطعمك يرفع عملك ، ويقبل سعيك ، وتستجاب دعوتك . كانت هذه أيها الحبيب بعض الموانع التي تحول بينك وبين القبول ، فاقرأها بدقة ، وقف أمامها بعناية ، وتطهر منها حتى لا تحرم خير " استجب لكم " ولا تفوتك بركة : " فإني قريب " .

أخي ، أنت بذاتك ضعيف ، وأنا أضعف منك ، والضعف صفة ملازمة لي ولك في كل حين ، فكيف إذا دار الزمن علينا دورة ، وصرنا قصعة تحلقت الكلاب حولها ، ونهشت الكلاب والذئاب وهوام الأرض ما بها ؟ إنها حال لا حول لي ولا لك عندها إلا بالله ولا قوة لي ولا لك إلا بالدعاء ،



فإنه قذائف الحق ، وراجمات الباطل ، وسلاح الفقير أمام عتو الشياطين ، وعريضة أهل الكبر والاستعلاء ، وهذا المعنى يؤكد لك خالد بن صفوان بقوله : اتقوا مجانيق الضعفاء (3) ، ونحن اليوم أخي بأنفسنا ضعفاء ، وبموازين القوى لا حول لنا ولا قوة ، فكيف ننام عن تلك المجانيق ، ونغفل عن هذه السهام والقذائف ؟ إن مجانيق الدعاء إذا استجمعت شروطها تصيب ، وإذا أطلقت قذائفها لا تحيب ، ولك في البطل الشهيد نور الدين محمود وفي خبره عظة ، فماذا كان من خبره ؟ لقد رأى أصحابه ورجالاته كثرة ما ينفق على المساكين ، واهتمامه الخاص بطلبة العلم ، وحرصه عليهم ، وطلب

(1) تنبيه المغترين . ص 214 .

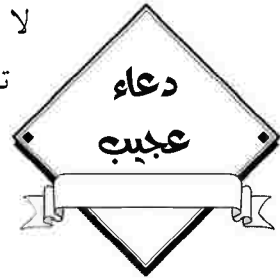
(2) نفسه : ص 144 .

(3) البيان والتبيين للجاحظ . ج 1 ص 352 .

الدعاء منهم ، فعاتبوه بحجة أنه يبدد الأموال على هؤلاء ، ويتلف خزائن الدولة على الفقراء ، والجند في ميادين القتال بذلك أولى ، فهل نزل على رأيهم ، ونسج على منوالهم ؟ لا والله ، وإنما واجههم بحجة بالغة ، ورأي صائب ، وإيمان عميق ، فقال : والله إني لا أرجو النصر إلا بهؤلاء ، فكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأي بسهام قد تصيب وقد تخطئ ؟ .

إن عليك الآن أخي أن تحني رأسك إجلالا وإكباراً لرجل وهبه ربه كل هذا الفقه ، ورزقه هذه الفهم ، وملأ قلبه بأنوار الحكمة ، فأدرك حقائق الأمور ، في وقت يقف غيره عند ظواهرها ، فتدبر أخي قوله : كيف أقطع صلات قوم - يقصد الضعفاء والفقراء وطلبة العلم - يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ ؟ - إنه يقصد سهام الإصابة ومدافع الليل ، وقذائف السحر - وهي أسلحة الفقراء حين تتجافي جنوبهم عن المضاجع يرفعون أكفهم ويناجون مليكهم ، يسألون النصر ، ويدفعون الضر ، ثم تأمل أخي قوله : وأصرفها - يقصد الهبات والصلوات - إلى قوم - يقصد من معه من قادة وجند - لا يقاتلون إلا إذا أمرتهم ، وبسهام قد تخطئ وقد تصيب ، وتلك حقيقة ، فسهام الليل لا تخطئ ، أما سيوف الجند فقد تصيب وقد تخطئ ، فاملاً أخي جعبتك ، وارم سهامك ، وتحير وقت الإجابة ، وأنعت لك وقت السحر ، قو به ضعفك ، وأصلح به نفسك ، وانصر به أمتك في زمن صار النصر فيه أمنية تداعب الخيال ، وحلماً جميلاً من الماضي ، يتراقص فوق الجفون .

لا تحمل هم الإجابة ، ولا ترهق نفسك بالتفكير فيها ، ولا تشئت ذهنك في انتظارها ، لأنك مع الدعاء في روضة يانعة ، وحدائق ذات بهجة ، فماذا يطلب ذو اللب بعد ذلك ؟ وربك أيها الحبيب هو الغنى ذو الرحمة ، فكن على ثقة أنه ما خلقك ليضيعك ، ولم يأت بك من العدم إلى الوجود ليضيع



عليك ، فلا تحمل إذن هم الإجابة ، ولكن هم الدعاء ، فإذا فتح عليك باب الدعاء ، وهداك إليه فأبشر ثم أبشر ، والله در ابن عطاء حيث يقدم لك زهرة ندية ، وثمره غضة طرية ، وحكمة من بستانه عذبة شهية ، يقول : كفى من جزائه لك على الطاعة أن

رضيك لها أهلاً ، ومتى أطلق لسانك فاعلم انه يريد أن يعطيك ، يا الله ، يا مثبت القلوب ، ثبت قلوبنا لتحتمل هذه المعاني ، إنه يقول لك : إن الكريم يلقي على لسانك ما يريد أن يمنحك فلا تحمل هم الجواب ، فإذا ألقى في روعك الطلب ، وأطلق بالسؤال لسانك ، فاعلم أنه يريد أن يتحفك ، ولهذا يقف المرء أحياناً على أدعية عجيبة ، يشعر أمامها ، أن ربك أوحى بها ، فاقرأ أخي هذا الدعاء ، وردده مرة بعد مرة ، وتأمل لتعلم أن الدعاء عطاء ، وأن الطلب من المولى فن لا يحسنه كثير من الناس ، قال الأصمعي : وقف أعرابي أمام الروضة الشريفة فقال : اللهم هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوك ، فإن غفرت لي سر حبيبك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ، وهلك عبدك ، ورضي عدوك ، وأنت أكرم من أن تغضب حبيبك ، وتهلك عبدك ، وترضى عدوك ، اللهم إن العرب الكرام إذا مات منهم سيذا اعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فأعتقني على قبره ، قال الأصمعي : فقلت يا أخا العرب : غفر الله لك وأعتقك على حسن سؤالك⁽¹⁾ ، اقرأ أخي هذا الدعاء مرة أخرى ثم أجب : هل رأيت أو سمعت بعد كتاب ربك وسنة نبيك دعاء مثل هذا ؟ إنه دعاء فطرة لم تلوث ، وطبيعة تسيل في بساطة ، نقية يبضاء كأمواج البحر لا تكلف فيها ولا تجمل ، فإن وفقت لمثلها فهنيئاً لك ، وإن لم يكن ، فبما فتح الله لك ، وكن على يقين بأن البر الرحيم لن يرد دعائك ولن يخيب رجاءك ما دام قد ألهمك وأطلق لسانك .

ولا يجمل بنا أيها الحبيب أن نترك هذه الروضة ، دون أن نعطر

الأجواء ، ونرطب القلوب ، وننعش النفوس بنماذج من الدعوات المستجابة ، وصور مشرقة من استجابات السماء لدعوات الربانيين ، ليزداد المؤمن إيماناً ، ويمتلئ قلبه يقيناً بأن المولى قريب ، وحاضر لا يغيب ، بابه مفتوح وسائله لا

يخيب ، فإليك هذه الزهرات من الدعوات الطيبات ، التي اخترقت السبع الطباق ،
ولامسنت العرش :



(1) في ملكوت الله . ص 7 . عبد المقصود سالم .

1- جاء خادم المأمون - الخليفة - إلى الإمام أحمد ، وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ، ويقول : يعز علي يا أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك ، وأنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ⁽¹⁾ ، ليقتلنك بذلك السيف ، قال : فجثي الإمام أحمد على ركبتيه ، ورمق بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلمك هذا الفاجر ، حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق ، فاكفنا مؤنته ، قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل ⁽²⁾ .

ما تقول أخي في هذه الزهرة ؟ أرأيت كيف يدافع الله تعالى عن الذين آمنوا ؟ أرأيت سرعة استجابة الرب للعبد إذا كان العبد ربانيا كالإمام أحمد ؟ لقد كفي الله تعالى الإمام مؤنة الفاجر كما طلب ، فأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فليحذر الذين يجاربون الله ورسوله ويؤذون أوليائه ، فإن الله تعالى يغار على عباده كما يغار أحدنا على عرضه وماله .

2- وهذه أخت لها أيها الحبيب ، وهي أيضاً للإمام الصابر المحتسب ، إمام أهل السنة ، الإمام أحمد ، لا تقل عن التي سبقتها جمالا وبهاء وروعة ، روى الإمام البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أُمِّي مزمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتني إليك لتدعو لها ، فكأن الإمام غضب من ذلك ، وقال : نحن أحوج بأن تدعو هي لنا من أن ندعو لها ، ثم دعا الله عز وجل لها ، فرجع الرجل إلى أمه ودق الباب ، فخرجت أمه على رجليها وقالت : قد وهبني الله العافية ⁽³⁾ .

لقد علمت أيها الحبيب أن ربك كريم ، لا يرد يد سائل ، ولا يخيب رجاء طالب ، فكيف إذا كان السائل ولياً من أوليائه ، وصفياء من أصفیائه ، في وزن الإمام أحمد ؟ فتدبر أخي واعتبر ، وعش في هذه الروضة محلقة مع قصص الصالحين ، وأدعية الربانيين ، ففيها لروحك شفاء ، ولقلبك دواء ، ولإيمانك زيادة ونماء .

(1) يعتقد أهل السنة أن القرآن الكريم كلام الله ، منه خرج وإليه يعود وكفي .

(2) البداية والنهاية ج 5 ص 888 . ابن كثير .

(3) نفس المصدر ج 5 ص 885 .

3- وهذه الثالثة من عبد فقير ، خامل الذكر لا يعرفه أحد ، ولا يشعر به الناس ، ولا ضير في ذلك ما دام معروفا ومشهورا عند رب الناس يقول عطاء السلمي : منعنا القطر فخرجنا نستسقى ، فإذا نحن بسعدون في المقابر ، فنظر لي وقال : يا عطاء أهذا يوم النشور ؟ أوبعث ما في القبور ؟ فقلت : كلا ، ولكن منعنا القطر فخرجنا نستسقى ، فقال : يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية. فقال : هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين : لا تتبهرجوا ، فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهي وسيدي ومولاي ، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ، ولكن بالسر المكنون من أسمائك ، وما دارت الحجب من آلائك ، إلا سقيتنا ماء غدقا فراتا تحي به العباد وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم كلامه حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب ، **فول وهو يقول :**

أفلاح الزاهدونا العابدونا	إذ لمولاهم أجاجوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا	فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى	حسب الناس أن فيهم جنونا ⁽¹⁾

ون شئت أن أعلق أخي على هذه الخبر فإنما تستوقضى فيه بعض كلمات منها :

- قوله : " بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية " ، فهو يعني : أنكم خرجتم تطلبون السقيا ، فبأي قلوب تطلبونها ؟ أبقلوب تفرقت بين الشركاء ، فملكها شركاء متشاكسون ، أم بقلوب ملؤها التوحيد وزادها الإيثار وشرابها التقوى ؟ بقلوب تعلق بالتراب ، وغاصت في طين الأرض ووحلها ، أم بقلوب تحلق في سماء الإيثار وتسبح في سماوات التقى والإحسان ؟ ويا لها من جملة .

- ثم تأمل أخي قول عطاء يصف حال العبد الصالح سعدون صاحب هذا الدعاء : " ثم رمق السماء بطرفه " وهذه الجملة عندي أعجوبة الدهر ، فما سمعت أختا لها أجل منها في موضعها وفي سياقها ومدلولها ، وهي والله أحب إلي وأشد تأثيرا في نفسي ووقعا في قلبي من آلاف الصفحات ، سودتها الأقلام ، وأخطأها الإحسان : " ثم رمق السماء

بطرفه " فكأنه أيها الحبيب ينظر إلى حبيبه من طرف خفي على استحياء ، وهو يعلم أن حبيبه يراه ويسمعه ، ويوقن تمام اليقين أنه لن يرده إذا سأل ، ولن يتأخر عنه إذا طلب ، وهو بالفعل ما قد حدث ، فلم يستتم دعاءه أخي حتى فاضت السماء بهاء منهمر كأنه أفواه القرب ، إن الله في خلقه شئون ، وللصالحين عند ربهم مقامات ، وللأولياء مع مولاهم أحوال ، فاللهم ارزقنا حبهم ، ولا تحرمنا بركتهم ، ولا تحجب عنا يوم نلقاك شفاعتهم يا قريب يا مجيب .

4- والأخيرة أخي أجهل وأعجب ، فخذها سماوية ربانية ، تحي القلب وتنعش النفس ، وتحلق بالروح في آفاق من الأمل والرجاء ، لا يطار لها على جناح ، ولا يسعى إليها على قدم ، روى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عليه السلام فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك ، لمكاني من نبيك عليه السلام ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعي لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكبير بدار مضيعة ، فقد جزع الصغير ورقد الكبير ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء كالجبال ⁽¹⁾ .

ما رأيك أيها الحبيب في هذا المشهد ؟

وما الذي استوقفك فيه ؟

أما أنا ، فقد طرق قلبي وإسر نفسي جملتان :

أما الأولى فقوله : لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، إنه كلام يشبه كلام الأنبياء ، ولم لا والسماء مصدره وعرش الرحمن منبعه ؟ ورب السماء والعرش العظيم هو القائل ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى:30] ولعلك بهذا أخي تدرك تمام الإدراك ، لماذا تنقلب الأمة في كل ميدان هزيمة ، وتبوء من كل رحلة بفشل ، فنحن في ميدان السياسة أمة مستضعفة ، أرضها

(1) صحيح وصايا الرسول ج2 ص 679 . سعد يوسف عزيز .

منهوبة ، ومقدساتها مغصوبة ، وأقصاها أسير ، لا تدعى إلى شيء ، ولا تستأذن في شيء ، وكأنها يقصدنا الشاعر بقوله :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم
والسبب واضح أخي : لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب
أخي ، متى نتوب ؟؟؟؟

ونحن في ميدان الاقتصاد على حال لا تسر ، فقر مدقع ، ومرض مقعد ، وجوع قاتل ، وحاجة مذلة ، نعيش على السؤال ، ونحيا على المعونة ، ونأكل بالتسول ، والسبب أخي واضح : لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي ، متى نتوب ؟؟؟؟ .

وفي ميدان الأخلاق أيها الحبيب ، حدث ولا حرج ، تهتك وانحلال ، وفوضى تامة ، ومصائب عامة ، وسلوك مرفوض ، وأوضاع مذمومة ، وأثرة بغیضة ، وأنانية مقبلة ، وفردية قاتلة ، ناهيك عن الكذب والنفاق والغش والخداع إلخ إلخ ... والسبب أخي : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب ، أخي متى نتوب ؟؟؟؟
وفي ميدان العلوم أخي : تخلف ظاهر ، وجهل فاضح ، وأمية مخزية ، وتبعية مذلة ، وحال مهينة ، والسبب واضح أخي : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي متى نتوب ؟؟؟؟ .

إما الثانية أخي فهي قوله : اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، إنه فقه المقربين ، أصحاب القلوب الحية ، والنفوس الزكية ، والأرواح المحلقة ، قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، يقنطوا من الجواب ، فيصيبهم الشك والارتباب ، في وجود رب الأرباب وقدرة مسبب الأسباب ، وهذا هو الهلاك بعينه ، قبل أن يقنطوا فيياسوا ، ومن ثم يتوقفون عن الدعاء فيهلكوا ، فترك الدعاء لتأخر الجواب يأس وهلاك ، وقد علمنا ما قال ربنا في اليائسين ، فإياك أن تستبطئ النصر أخي وتسأل : متى هو ؟ فالنصر قريب ، بل هو على مرمى حجر ، ولكن المولى لا يعجل لعجلة أحد ، فلا تقنط أخي إذا تطاول الباطل ، وتأخر النصر ، وكن على ثقة تامة ، أن مولاك لن يتخلى عنك أبدا ، ما دمت تولى وجهك شطره ، وتوجه قلبك نحوه ، وترفع يدك إليه ، فقد قضى سبحانه لك

بالنصر ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلَبَ لَنَا وَرُسُلِي﴾ إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[المجادلة: 21]

وهذه لوحة بديعة ، تسر الناظر وتسعد الخاطر ، أقدمها إليك

على طبق من ذهب ، قبل أن تغادر هذه الروضة ، فضمها

إليك ، متع بها نظرك ، وقلب فيها طرفك ، وأنعش بها

روحك ، وأسعد بها قلبك ، إنها هدايا الصالحين إليك ،

وهم القوم لا يشقى جليسهم ، فاسمع إلى أبي حفص وهو

يقول : أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه : الافتقار إليه ، وملازمة السنة ، وطلب

القوت من حله ⁽¹⁾ ، إن دعائك أيها الحبيب مرهون بهذه الثلاث ، فلا تطمعن أن يخلق

في الآفاق ، ويخترق السبع الطباق ، حتى تملأ قلبك بها ، وتطوى النفس عليها ، وتلزم

هديها ظاهرا وباطنا ، انكسار على باب القهار ، وملازمة لسنة المختار ، ولقمة طيبة من

حلال ، فيها للبدن شفاء وللقلب دواء ، وللإيمان بركة ونماء ، إنها ثلاثية لا بد منها

لقبول الدعاء ، فخذها أخي وضمها إليك ، انتفع بها ، وانشرها ، ففي نشرها زيادة

أريجها ، وعلمها غيرك ففي تعليمها بركة ، وأي بركة ؟

الآن أخي الحبيب ، نحن على الباب ، نوشك أن نغادر ، وليس

أزكى للنفس ، ولا أحلى في القلب من حديث الحبيب

المصطفى ﷺ فدعني أتحف نفسي وإياك ، وأزكي روحك

وروحي ، وأستنهض همتي وهمتك بحديث في فضل الدعاء

، ليظل معك بعد الوداع ، دافعا إلى الرجاء ، وهاديا إلى

الدعاء ، فإليك أخي : عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : ليس شيء أكرم على

الله تعالى من الدعاء ⁽²⁾ ، إنه مسك الختام من سيد الأنام ، يذكرك بأن مولاك يجب

الدعاء ، وللدعاء عنده مكان وأي مكان ، فالزم هذه الروضة ، وكن من الفقراء أهل

الحاجة والدعاء ، فهم القوم ولا قوم غيرهم ، وإذا هممت بالدعاء الآن أو غدا ، فتذكر



(1) موسوعة الأخلاق . ج1 ص 502 . سعد يوسف عزيز .

(2) حسن رواه الترمذی وغيره .

أخاك بدعوة هو فقير إليها ، بعد أن أمرضته ذنوبه ، وأحاطت به خطاياها ، ففعل الشفاء في دعوة منك بظهر الغيب فبالله عليك أيها الحبيب: لا تنس .

أغلقت الباب خلفي ، وقلبي بروضة الدعاء معلق ، وروحي بها هائمة ، ونفسي تلتفت إليها وتأبى أن تودع ، وإذا صوت من داخل الروضة بأعذب لحن وأجمل صوت ينشد ويردد :

يا من أجبت دعاء نوح فانتصر

وحملته في فلكك المشحون .



روحا وريحانا بقولك " كون "

وسترته بشجرة اليقطين

فارحم عبادا كلهم " ذو النون "

يا من أحال النار حول خليله

يا من أمرت الخوت يلفظ يونس

يا رب إنا مثله في كرب

قال صاحبي : ما أجمل هذا الصوت ، وما أحلاه ، كأني قد سمعته من قبل ، قلت

كما قال الفرزدق في مثل هذا الموقف : وليس قولك من هذا بضائره ، إنه صوت الدعوة

المغرد ، وبلبلها الصداح ، إمام عصره ، ووحد دهره ، ومن نتقرب إلى الله بحبه ، ونبرأ

إلى الله تعالى ممن يبغضه ، إنه صوت شيخنا القرضاوي ، ثم انطلقنا وخلفنا روضة

الدعاء وراءنا نبحت عن روضة أخرى .



بعض المصادر

- 1 - مدارج السالكين. الإمام ابن القيم دار الحديث
- 2 - شخصيات استوقفتني . د / محمد سعيد البوطي . دار الفكر
- 3 - طبقات ابن سعد. دار صادر.
- 4 - سير أعلام النبلاء . الإمام الذهبي . دار الرسالة.
- 5 - المواعظ والمجالس . ابن الجوزي . مكتبة الإيمان.
- 6 - مكاشفة الذنوب . الإمام الغزالي . مكتبة الإيمان .
- 7 - التذكرة في الوعظ. ابن الجوزي . دار ابن خلدون.
- 8 - في ظلال القرآن . سيد قطب دار الشروق.
- 9 - زاد المعاد. ابن القيم.
- 10 - حلية الأولياء. أبو نعيم .
- 11 - مختصر منهاج القاصدين . دار التراث .
- 12 - إحياء علوم الدين . الإمام الغزالي . دار الحديث .
- 13 - تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي .
- 14 - ذم الهوى . ابن الجوزي.
- 15 - لطائف المعارف . ابن رجب .
- 16 - إيقاظ الهمم في شرح الحكم. ابن عجيبة.
- 17 - تفسير ابن كثير.
- 18 - مختصر تاريخ ابن عساكر.
- 19 - أصول الوصول . الشيخ محمد حسين يعقوب .
- 20 - صفة الصفوة. ابن الجوزي.
- 21 - البيان والتبيين. الجاحظ.
- 22 - المنتظم. ابن الجوزي.

- 23- رسالة المسترشدين. الإمام المحاسبي.
24- التبصرة. ابن الجوزي .
25- تنبيه الغافلين. الإمام السمرقندي.
26- صيد الخاطر. ابن الجوزي.
27- الجانب العاطفي في الإسلام. محمد الغزالي.
28- الزهد . الإمام أحمد . دار الريان.
29- طريق المهجرتين. ابن القيم . المطبعة السلفية.
30- الوابل الصيب . ابن القيم . دار الكتاب العربي.
31- الأذكار . الإمام النووي.

